السيرة الذاتية وثقافة المقاومة في مذكرات إدوارد سعيد "خارج المكان"

Autobiography and the Culture of Resistance in Edward Said's Memoirs "Out of Place"

الدكتور. قاسمي عبد الناصر

قسم العلوم الاجتماعية - جامعة الوادي(الجزائر)

Abdenacer-gasmi@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2022/08/15 تاريخ القبول: 2023/03/14 تاريخ النشر: 2023/03/15

ملخص:

سعت هذه الدراسة إلى إبراز الوشائج القوية، التي انعقدت بين كتابة السيرة الذاتية وبين ثقافة المقاومة، انطلاقاً من قراءة تأويلية موازية لمذكرات المفكر والناقد إدوارد سعيد الشهيرة "خارج المكان". لقد بات معقوداً في غالب الأحيان، أن غرض السيرة الذاتية لا يتعدى الأطر الشخصية والنفسية، وأن فعل المقاومة يتجه صوب جهة أو جهة أو محتل غاشم، غير أن تفحصنا وتمحيصنا لمذكرات إدوارد سعيد، أفضت إلى أن روح المقاومة عنده قد شملت أكثر من صعيد، لكنها تتوحد جميعها في الوقوف ضد كل أنماط التسلّط وإرادات الهيمنة على اختلاف أصنافها.

الكلمات المفتاحية: السيرة الذاتية - ثقافة المقاومة - السلطة والهيمنة - إدوارد سعيد - خارج المكان.

Abstract:

This study sought to highlight the strong ties that existed between autobiographical writing and the culture of resistance, based on a parallel interpretive reading of the memoirs of the thinker and critic Edward Said "Out of Place". It has become complex in most cases, that the purpose of the biography does not exceed personal and psychological frameworks, and that the act of resistance is directed towards a side, a front, or a brutal occupier. All of them are united in standing against all types of domination of all kinds.

key words: biography - resistance culture - power and domination - Edward Said - out of place

مقدمة:

قبل وفاته بأكثر من عشر سنوات، دخل المفكر والناقد العربي المعاصر إدوارد وديع سعيد (Edward .W. Said) في صراع مرير مع المرض، عند تلقيه في عام 1991م تشخيصاً طبياً، يُفيد إصابته بمرض سرطان الدم اللّمفاوي، المعروف باللُّوكيميا. منذ ذلك الحين، أدرك الراحل ضرورة أن يخلّف سجلا يدوّن فيه مذكراته، فيما يشبه نوعاً من السباق المحموم مع الزمن إلى أن أنهى في سنة 2000م سيرته الذاتية، الموسومة بـ "خارج المكان" (Out of Place).

إن أقل ما يقال عن هذه السيرة، أنها كانت حافلة واستثنائية، كما كانت نصاً سردياً على درجة كبيرة من الإثارة والثراء، حيث تزدحم فصولها بشتى المفارقات والانقسامات وحتى التَّناقضات، التي كان لها أثرٌ بالغ في رسم معالم إدوارد سعيد الأنطولوجية، وفي تحديد مسيرته النقدية وفي تسطير نهجه الفكري المقاوم.

وما يثير الإعجاب بهذا المفكر والأديب ذائع الصيت، أنه كان من بين المنفيين والمُهجَّرين وأحد ضحايا نكبة عام 1948م، التي ألمت بالفلسطينيين. فقد اقتُلع من أرضه وحُرم من دفئ وطنه، ليعيش منفياً في الولايات المتحدة الأمريكية، في نزاع مع ذاته وخصام مع لغته وهويته. والملفت في سيرة إدوارد سعيد حقاً، أنه بالرغم من تربيته التي كانت كلُّها غربية ولغته الإنجليزية الفخمة ونفوذه في المؤسسات الأكاديمية الأمريكية وكذا أصوله الأرستقراطية، لم تمحو شعوره المتأصل بمشرقيته، وانتمائه الفلسطيني وحنينه لعروبته. والأكثر من ذلك كله انتصاب هذا الأخير شوكة في حلق الاستشراق والإمبريالية والكولونيالية، ولكل أشكال الهيمنة الغربية، فهو من الأصوات القليلة التي تجهر بقول الحقيقة في وجه السلطة.

إن قراءة تأويلية موازية لسردية إدوارد سعيد "خارج المكان"، تثبت بأن هذه الأخيرة توثق بشكل من الأشكال لاستراتيجيات المقاومة، التي تبناها الراحل منذ بدايات حياته تجاه أكثر من صعيد. مقاومة لم يكتف فيها سعيد بالتصدي للاستيلاء الصهيوني على الأرض والذاكرة الفلسطينيتين، بل تتصدى في اعتقادنا لكافة أنماط الهيمنة وإرادات السيطرة وكذا التعسف في استخدامات السلطة على اختلاف أنواعها وأشكالها.

وتجدر الاشارة في بداية هذا البحث، إلى أن قسماً كبيراً من سيرة إدوارد سعيد المثيرة، هي عبارة عن اعترافات أو بالأحرى مذكرات على درجة كبيرة من الجرأة والمكاشفة. مكاشفة قل

مثيلها في أدبنا العربي الحديث والمعاصر، الذي يلجأ في غالب الأحيان إلى التخفي وراء السرد القصصي وخلف رموز وأسماء مستعارة، كما فعل طه حسين ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم والعقاد والمازني وغيرهم من الأدباء.[1]

وعليه سنحاول من خلال هذه الورقة، تسليط الضوء على أنماط القلق وأنواع المرارات والخيبات وأصناف المعاناة التي مر بها إدوارد سعيد، وإبراز مقاوماته لها ورفضه لكافة أشكالها، في تجسيد واضح لثقافة التعرية والنقد وكذا الرّفض والمقاومة، التي يعد إدوارد سعيد رفقة فرانز فانون (Frantz Fanon) وغاياتري سبيفاك (Gayatri Spivak) وهومي بابا (Homi Bhabha) وغيرهم، من بين المؤسسين الأوائل لهذا النمط من الكتابة أو ما بات يعرف بالدراسات أو النظرية المابعد كولونيالية (Postcolonial Theory) .

أوّلاً: السيرة الذاتية وثقافة المقاومة:

1)- في السيرة الذاتية:

لقد شهدت نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين، اهتمامًا متزايدًا بموضوع السيرة الذاتية (Autobiographie) ومحاولات متكررة لإعادة تعريفها، كما شهدت تغيّراً في أسلوب التعاطي مع السيرة الذاتية، المعترف بها في الغرب منذ أواخر القرن الثامن عشر كنوع أدبي قائم بذاته. وحسب جورج ماي(George May) فإن نهاية القرن الثامن عشر يعد بمثابة البداية الفعلية لانتشار السيرة الذاتية، كلون من ألوان الفنون الأدبية. فمنذ نشر اعترافات (Confessions) لجان جاك روسو بعد وفاته، شكل ذلك التاريخ نقطة انطلاق أو الإعلان عن استقلال السيرة الذاتية، ككيان أدبي خاص ومستقل.[2] وللتذكير، فإنه مع أواسط القرن العشرين، لم تعد السيرة الذاتية حكراً على الحضارة الغربية دون غيرها.[3]

ويُجمع الدارسون للسيرة الذاتية في التراث والأدب العربيين، على أن هذا الشكل الإبداعي قد عرفه تاريخنا الأدبي القديم، فهو « غرض أدبي عريق في حضارتنا العربية الإسلامية، ولئن لم يتبلور متصوّره الذهني، بما يتيح له الانفراد بمصطلح نقدي مخصوص، فإنه قد صيغَ على نماذج تكاد تصل به منزلة الاكتمال في المضمون والغرض والأسلوب ».[4]

لقد عرف الأدب العربي السيرة الذاتية قديماً وحديثاً، ويُعد كتاب "الأيّام" لطه حسين الذي صدر عام 1929م، أحد النصوص التأسيسية الأولى للسيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث.[5] فقد أسهم هذا الأخير، في وضع حجر الزاوية لأدب السيرة الذاتية، كما اعتُبر أثره في الأدب

العربي الحديث، أشبه بأثر اعترافات روسو في الأدب الفرنسي خلال القرن التاسع عشر. كما يجب الإقرار من جهة أخرى، بأن هذا النوع من الفنون، المتمثل في « كتابة سير الحياة والسير الذاتية والاعترافات والمذكرات، لايزال منطقة محظورة وغريبة على الفكر العربي المعاصر والفلسفي منه بصفة خاصة ».[6]

لقد بات مؤكداً بأن السيرة الذاتية بمفهومها المتعارف عليه اليوم، فناً من فنون الخطاب المعاصر، له خصوصياته وأسُسه الفنّية والإجرائية، سواء من حيث تقنيات الكتابة أو من حيث طرائق الطرح أو من حيث الموضوعات التي تتناولها. كما تلتقي السيرة الذاتية في بعض جزئياتها مع فنون الخطاب الأخرى كالرواية مثلاً، ولكنها تحمل ـ كما أسلفنا ـ خصوصيات تجعل منها كياناً قائماً بذاته، مستقلاً عن غيره، يستحق مزيداً من الاهتمام والدراسة والتحليل.

والسيرة الذاتية كونها تجربة فنية وإبداعية، فهي تختلف من جهة أخرى عن سائر الفنون الأدبية الأخرى، من حيث ارتباطها الواضح والمعلن بالذات الساردة ارتباطاً وثيقاً. فمدار السرد وموضوعه هو هذه الذات الساردة نفسها، حتى ولو ظهرت أحيانًا بضمير الغائب، كما في الأسلوب الذي اعتمده إدوارد سعيد في مواضع عديدة من كتابه "خارج المكان"، منها على سبيل الذكر لا الحصر قوله في الفصل الأول: « فالمعادلة الضمنية التي نشأتُ في ظلها هي أن "إدوارد" يشبه أخواله ("طالع مخول") [....] ولما كان أخوالُ "إدوارد" أبناء وأشقاء عاقين، فالأرجح أنه سوف ينتهي مثلهم، وهو ما يستوجب بتر هذا المسار وإعادة تربية الولد وإصلاحه إلى أن يصير أقل شبهاً بهم ».[7] وهكذا يتحوّل المبدع نفسه ـ في مثل هذه الحالة ـ موضوعاً لإبداعه.

إنه لا مناص من أن يتعرى السّارد في السيرة الذاتية أمام نفسه وأمام قُرائه، ليقول ما لم يقله من قبل أو ما كان يخفيه أو عاجزاً عن قوله لمدّة طويلة من الزمن. ومن هذا المنطلق، فإن السيرة الذاتية هي باختصار: « أن يكتُب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث ».[8]

والجدير بالذكر، أن مطاراحات فيليب لوجون (Philippe le jeune) في كتابه "الميثاق السّير ذاتي" (Le pacte autobiographique) تعد في نظر الكثيرين، إحدى أشمل الدراسات وأمتنها في هذا الميدان. فهو يعرّف السيرة الذاتية بأنها « حكي استِعادي نثري، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفه خاصة ».[9]

لقد بات في حكم المؤكد بأن رواية السيرة الذاتية، ليست مجرد سرد تاريخي لأحداث مضت

وولت، أو استحضار لذكريات الطفولة والشباب وذكريات العمر، بل هي بحثٌ عن معنى جديد لوجود الكاتب، من خلال التفاعل بين الذات والكتابة. فهي محاولة لفهم الذات ودورها في الحياة، وذلك من خلال فعل الكتابة، الذي يُعتبر مترجماً للأفكار والمشاعر. ويجدر بنا في هذه الحالة، أن نؤيد بول ريكور (Paul Ricœur) في ميله إلى « اعتبار السرد حارسا للزمان، ما دام الزمان لا يمكن التفكير فيه من دون زمان مروي ».[10]

والملاحظ في الأعوام الأخيرة، أنه لم يعد التركيز في السيرة الذاتية منصباً على السرد الكرونولوجي للأحداث، بل على هواجس الذات ونواحيها النفسية وإبداعاتها الفلسفية وانشغالاتها الثقافية والسياسية أكثر من تركيزها على سرد الأحداث في سياقها التاريخي. لقد أكد نيتشه (Friedrich Nietzsche) هذه الحقيقة، عندما قال: « لقد اكتشفت شيئاً فشيئاً، بأن كل فلسفة عظيمة كانت دائماً وإلى يومنا هذا، عبارة عن اعترافات صاحبها ومذكراته، سواء قصد ذلك وكان واعياً به أم لا ».[11]

وبالعودة إلى إدوارد سعيد، فإن مذكراته "خارج المكان" تتخذ شكل الرّسم الذاتي (autoportrait)، لأنه يَميل في سرد هذه السيرة إلى رسم ملامح شخصيته المتطورة عبر رحلة الحياة التي عاشها، عندما أحس بأن هذه الرحلة قد شارفت على الانتهاء. وعليه لا تتباعد الحكايات الثانوية القصيرة التي يرويها عن الحكاية المركزية، أي حكاية السّارد الخاصة،[12] والتي سنسعى إلى إبرازها لاحقاً.

2)- في ثقافة المقاومة:

بعيداً عن الدلالات اللغوية والمعجمية للثقافة، سنضطر - لضيق المقام - للوقوف عند واحد من أقدم المفاهيم الاصطلاحية للثقافة وأكثرها شيوعاً، وهو التعريف الذي وضعه عالم الأنثروبولوجيا البريطاني تايلور (Edward Burnett Tylor) في كتابه "الثقافة البدائية" (1871)، الذي يفيد بأن «الثقافة أو الحضارة، هي ذلك المُجمل المتشابك المشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والممارسات الأخرى، التي يكتسبها الإنسان كعضو في جماعة ».[13]

لقد حظيت الدراسات الثقافية باهتمام كبير في مؤلفات إدوارد سعيد العديدة، وبخاصة في كتابيه المميزين: "الثقافة والإمبريالية" و"الاستشراق"، حيث عمل من خلالهما على تحليل ودراسة ثقافة الآخر - الثقافة الغربية تحديداً - التي أفضى تفوّقها وتمركزها حول ذاتها، إلى إشاعة الصور النمطية والأحكام الإستشراقية وتبرير الهيمنة الإمبريالية، تمهيداً للطغيان الكولونيالي،

وتزاحم القوى الغربية بالمناكب، لتقاسم الأراضي في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية.

ويُعزى لثقافة المقاومة، التصدّي لعمليات الإخضاع والهيمنة الإمبريالية، وتبريراتها الإيديولوجية، وكذا فضح استراتيجياتها السلطوية ونواياها الاستعمارية، حيث أسهمت هذه الثقافة الجديدة ـ ثقافة المقاومة ـ في تعزيز الوعي النقدي؛ الفردي والجماعي، وإيقاظ الحس الوطني وحتى الديني، الذي أسهم في رفض الاستعمار ومقاومة القهر المسلّط على الشعوب.

إن المقاومة ليست رديفة الاحتلال دائماً أو إعلان للحرب بالضرورة أو حمل السلاح ضد جهة أو جهة ما. فقد سبق وأن حسم فرانز فانون (Frantz Fanon) بحدة ووضوح في مشروعية هذا النوع من المقاومة، حين شرّع للعنف المضاد بقوله أن « محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائماً، وأنّ تدمير النُّظم الاستعمارية هو ثمرة عنف يقوم به الشعب المستعمَر ».[14]

غير أن للمقاومة أيضاً بدائل وخيارات عديدة، فقد اتخذت في الآونة الأخيرة أشكالاً بالغة التنوّع. صحيح أن أبرز أشكالها هو العنف المسلح، لكن هناك أيضاً ما بات يُعرف بالمقاومة الثقافية، التي تتخذ من الثقافة بكافة أشكالها، أدوات للتعبير عن الرفض والمقاومة، كما في الأدب والفن والفلسفة والعلم والسياسة والتصوف وغيرها. لقد برزت المقاومة على سبيل المثال، في نظريات غاليلي الكونية وفي أعمال بيكاسو وأدورنو وماركوز، وفي نظريات ماركس وغارودي وأركون وغيرهم. فالمقاومة بمفهومها الشامل تكاد تكون مدخلاً لتفسير التاريخ وللعمل الإنساني المتراكم، لأجل الحرية والهوية والإبداع والتقدم وكل الجهود الرامية لمحاربة الجهل والفقر والأمية.

إن فكرة المقاومة باتت تتداخل وتتفاعل يوما بعد يوم مع مفاهيم أخرى مكملة؛ كالعلم والهجرة والحضارة والإنتاج والحرب والحب والسلام وغيرها، على الرغم من أنّ المقاومة تبدو أكثر حضورًا واستماتة في الدين والأدب والفلسفة والعلم، وهذا ما يجعل بداياتها غير محدّدة زمكانياً، فقد ظهرت مع ظهور الإنسان، أي مع بدء الخليقة وفجر الحياة، فقد شكلت بعدًا جوهريًا في الأساطير والتراث.

قد يتعذر على الباحث الوقوف عند محددات أو تعريفات لغوية أو اصطلاحات نهائية حول فكرة المقاومة، لأنها قد تشمل كل نص أو خطاب أو شعار أو أغنية أو موقف ثقافي أو فكري أو أدبي في مواجهة قوّة أو طرف ما. فالمقاومة عموماً، هي أن يسير الشخص عكس التيار السائد، وهي أن يقول لا حين تسود كلمة نعم، ومعناها الرفض والمناهضة والتمرد على... والاحتجاج

ضد... فهي إذن شكل من أشكال التمرد والعصيان، وهي نوع من أنواع الممانعة وعدم الرضوخ لتغييرات أو قوى مفروضة على الذات، هذا الجهد الحثيث هو ما يسميه إدوارد سعيد بالرحلة إلى الداخل.[15]

وبصفة عامة، يمكننا إجمال المقاومة الثقافية في أنّها « تعمّد ممارسة الخصوصية الثقافية في الكتابة: إذ تستحضر الثيمات الأدبية التقليدية، ويتم استعادة الماضي الذي يعود إلى مرحلة ما قبل الاستعمار القديمة أو المتأخرة على السواء وإحياء الجماليات التقليدية والتمسك بقيم الجمال الوطني أو الطائفي أو الديني أو القومي أو العرقي »،[16] هذه هي إذن، بعض أهم سمات النصوص الأدبية، التي تمارس المقاومة الثقافية.

وفي جميع الأحوال، يمكن اعتبار ثقافة المقاومة، ثقافة بديلة ومضادة، قائمة على التحدي والتصدي لثقافة الهيمنة والاستعباد، وانتهاك حقوق الإنسان وحريات الشعوب. وهي رد فعل طبيعي ومشروع، تجاه وضع غير طبيعي، يشوب علاقات الشعوب وحتى الأفراد، بمعنى أنها ثقافة الحريات والعدالة وكرامة الإنسان والأوطان، وهي قضية وجودية ترتبط بكينونة الإنسان المقاوم، وبمدى وعيه لذاته وللتحديات التي تواجهه، وبامتلاكه لرؤية تتناسب مع أهداف تلك المقاومة واليقين بجدواها.

وتجدر الإشارة كذلك، إلى أن المقاومة ليست هدفًا بحد ذاته، كما أنها ليست حرفة أو مهنة أو ثوباً مغشوشاً، تتدثر به السياسة وأصحاب المصالح وأشباه المثقفين، وإنما هي تضحية واستجابة واعية لتحديات الواقع والمستقبل. كما أن ثقافة المقاومة هي ثقافة التجاوز، التي عبّر عنها العلماء والعظماء في التاريخ، الذين قدموا أثمان باهظة للانتصار في تلك المعارك التاريخية، ضد الطبقية والإقطاع والاستغلال والعبودية والتزمت الديني والجهل المبرمج. والأمثلة في التاريخ القديم والحديث لا تُحصى، عن أولئك الذين تمثّلوا المقاومة وجسّدوها في أفعالهم وأقوالهم وكتاباتهم ودفعوا أثماناً باهظة لقاء ذلك.

ثانياً: مظاهر المقاومة في سيرة إدوارد سعيد الذاتية:

بالعودة إلى مذكرات إدوارد سعيد وإلى سيرته ومسيرته، فقد كانت بلا مبالغة حافلة بشتى أنواع المقاومات وأساليب الرفض، التي استهدفت أكثر من صعيد، نظراً لأصناف المعاناة وتعدد الضغوطات التي تعرّض لها في حياته. وانطلاقاً من قراءتنا الموازية لمذكراته، وكذا تتبعنا لمراحل سيرته المدوّنة في "خارج المكان"، يمكننا حصر وتصنيف أهم مظاهر المقاومات التي برزت في

سيرة ومسيرة هذا الأخير، فيما يلي:

1)- السيرة الذاتية ومقاومة خطاب المستعمر:

مما لا شك فيه أن السيرة الذاتية بمعناها الأدبي الواسع، قد أضحت من أهم أشكال المقاومة الثقافية، التي لا تقل أهمية عن نمط المقاومة المسلحة أو العسكرية. فقد بات جلياً في الآونة الأخيرة، أن الكتابة عن الذات أصبحت سلطة مقاومة ووسيلة من أكثر الوسائل الثقافية تأثيراً، خاصة عندما يكون هدفها إثبات الذات واستعادة حرية الوطن المسلوبة وفضح ممارسات الآخر. ففي حالة إدوارد سعيد، سيسمح تدوين سيرته الذاتية، بإنتاج رواية مضادة أو سردية بديلة لمواجهة محاولات المستعمر، نفي الذات الفلسطينية وإلغاء هوية فلسطين التاريخية.

ومن هذا المنطلق، فقد كان اختيار إدوارد سعيد صائباً، لعبارة "مذكرات" (A MEMOIR) عنواناً فرعياً لكتابه المميّز "خارج المكان"، بهدف ترسيمها شاهداً على اقتلاعه من المكان وإزاحته قسرياً إلى خارج المكان. لقد قصد الكاتب تنصيب هذه السردية، شكلاً من أشكال المقاومة الثقافية، من أهم أهدافها مقاومة خطاب المستعمِر، وحماية إرث الوطن التاريخي، وكذا تعزيز الذاكرة الجمعية وتأكيد الهوية الفلسطينية، من دون الوقوع في فخّ الشوفينية القومية.

لقد سعى إدوارد من خلال تدوين مذكراته، إلى سرد حكاية النكبة والاستيلاء الصهيوني على فلسطين، لإنقاذ أماكن طفولته من الاندثار والضياع. فقد روى بعناية فائقة قصّة قُدسِه المغتصبة، لمقاومة محاولات المستعمِر إنكار تاريخه الفلسطيني، ومساعي الصهيونية الحثيث لمحو آثار وجوده المتأصل في المدينة، بعد أن نجح في اقتلاعهم من المكان، وطردهم إلى خارج المكان.

لقد حسم إدوارد سعيد قراره، بالعودة سياسياً إلى العالم العربي، بعدما هزته هزيمة 1967م وصدمته. فرغم سنوات بعده أو بالأحرى إبعاده عن العالم العربي، الذي كان قد أغفله خلال سنوات التعليم والنضج الطويلة. لكنه عاد لإنقاذ هويته، ولترميم أماكن طفولته المبكرة، التي عاش معظمها في القدس والقاهرة وضهور الشوير « تلك الطفولة التي دمرتها أحداث 1948، والثورة المصرية والاضطرابات الأهلية اللبنانية، التي بدأت عام 1958 »،[17]

إن تكرار حكاية سعيد وتوثيقها ـ حكاية فَقْد المكان الأول ـ هي بمثابة تأسيس للحكاية الفلسطينية برمتها. فالسيرة الذاتية إذن، هي بمثابة العودة إلى الأصل، عودة من الخارج إلى

الداخل لتحقيق الحلم الفلسطيني بالعودة،* وإن كانت هذه العودة عبر الكتابة وإعادة اكتشاف الذات. إن من شأن ذلك، منع فلسطين من أن تسقط أو تختفي إلى الأبد. ويجدر بنا التذكير في هذا المقام، بالتحليل المفيد والمهم، الذي قدمه غاستون باشلار (Gaston Bachelard) عندما خصص الجزء الأهم من كتابه "شاعريات المكان" (La Poétique de l'espace) لتحليل العلاقة بين الإنسان ومكانه الأول.[18]

إن الأمكنة التي نشأ فيها سعيد في فلسطين والقاهرة ولبنان، لم تعد موجودة كما كانت زمن وجوده فيها، لذلك تعمّد أعادة تصوير تلك الأمكنة، عبر إعادة تركيب وتأليف قصته.[19] ويصف سعيد في "خارج المكان" الأمكنة التي عاش وترعرع فيها، وصفاً دقيقاً ومفصلاً، من خلال رسم خرائط تنقُّلاته بين المناطق والشوارع والمدن، التي تعمّد التعريف بها وبأسمائها، من القدس إلى القاهرة فصفد ثم الزمالك وحيفا، مروراً بضهور الشوير في جبل لبنان.

إن أحد أبرز أهداف السيرة المكتوبة، هي الحفاظ على ذاكرة المكان المفقود، عبر استعادة جغرافيته في الماضي، وبالتالي فإن الأشكال والمناظر والمباني تكون محبوكة مع مظاهر أخرى في الذاكرة. كما أن أوصاف المكان المادية؛ كالبيت والبئر والشجرة والحقل مهمة جداً لكاتب السيرة، كونها تحافظ على ذكرى العالم الضائع، لكي تتعرف إليه أجيالٌ ولدت بعد ضياعه.

لنلاحظ على سبيل المثال، الطريقة التي يصف بها سعيد المنزل الذي ولد فيه، بقوله: « يقع منزلُنا العائليُّ في الطالبيّة وهو حيّ من القدس الغربية قليلُ السّكان، بناه وسَكَن فيه حصراً فلسطينيُّون مسيحيُّون من أمثالنا. والمنزل كنايةٌ عن فيللا حَجرية مهيبة من طبقتين، كثيرة الغرف تُحْدِق بها حديقةٌ جميلةٌ [...] أمام المنزل بورةٌ مستطيلة خالية [...] ولم يكن لنا جيرانٌ مباشرون، مع أنّك تَلْقى على مسافة خمسمئة ذراع تقريباً صفاً من الفيللات المشابهة [...] أَضحت البورةُ حديقةً عامةً والمنطقةُ المجاورة للبيت حياً فخماً يَسْكنه أغنياءُ اليهود ».[20]

يعود بنا سعيد في هذا الوصف، إلى القدس في بدايات عام 1948م، ينقل لنا التوترات السياسية والانقسامات الجغرافية والإثنية، التي بدأت تَعصف بمدينته - القدس - آنذاك. فقد بدى وصفه للمدينة ـ وهو على وشك مغادرتها ـ كأنه يودع صورتها الأخيرة في ذاكرته. صورة لم يفارق خيالها ذاكرة سعيد أبداً « فعندما أسمع الآن إشارات إلى القدس الغربية [يقول سعيد] فإنها تعني دوماً بالنسبة إليّ الأحياءَ العربيةَ لمرابع طفولتي [ويضيف في موضع آخر] فلقد أَضْحت القدس الغربية الآن يهودية بالكامل، وطُرِدَ منها سكانها السابقون نهائياً في أواسط العام 1948 ».[21]

لقد تحوّلت علاقة سعيد بالمكان، من حالة المعايشة والتجذّر الطبيعي إلى حالة نصّية أدبية أو إبداعية، تسعى إلى تمثّل المكان وإلى إعادة بنائه سردياً. ففي خارج المكان يعيد إدوارد سعيد بناء المكان، في مشاهد بانورامية كثيرة، يقول في إحداها: « كان الانطباع العام عن القدس أنها مدينة يَغلبُ عليها الطابع الإنجليزيّ إلى حد كبير، نظيفةُ المساكن، منظّمةُ السَير يُكْثر أهلُها من شرب الشاي، وسكانُها عربٌ من ذوي الثقافة الإنجليزية.[...] وسكان القدس هم في الدرجة الأولى من الفلسطينيين ».[22]

لقد أصبحت القدس مجرد ذكرى، تخترقها جغرافيا الأماكن الجديدة. لذلك فقد حرص سعيد على رسم الأماكن التي غادرها وتدوين الأماكن التي انتقل إليها بالكلمات، حتى تَظْهَر في شكل صور من الواقع، واقع بدت من خلاله القاهرة والزمالك تحديداً « أَشبهُ بالمركز الكولونياليّ الأمامي يتحكّم فيه الأوروبيُّون الذين لم يكن لنا - أو لم يكد يكون لنا - اتصالٌ بهم. وقد أنشأنا عالَمنا الخاص داخل الزمالك. وكان بيتُنا شقةٌ فسيحة في الطبقة الخامسة من 1، شارع عزيز عثمان، تُطل على ما يسمَّى حديقة الأسماك ».[23]

قد لا تكون المقاطع التي وصف فيها سعيد القدس كثيرة، فقد كانت معدودة أو محدودة مقارنة بعموم سيرته الذاتية. لكنها بالمقابل، مثلت وصفاً بانورامياً شاملاً، في مقاطع طوبوغرافية عامة، تميل إلى التفاصيل عند وصف الشوارع التي تحيط بالمكان لتأكيد التاريخ العربي لمدينة القدس، ولهويتها الفلسطينية.

إن إلحاح إدوارد سعيد على التقاط صور نصية ـ أو سردية ـ للمكان الذي أُغتصب منه يؤكّد لنا إصراره وحرصه الشديد، على تسجيل روايته المضادة للرواية التي تروّجت لها إسرائيل التي عملت على إعادة مسح المكان وطمس آثار الجريمة وتشريد الضحايا الذين أُقتُلعوا من أرضهم. لقد خلقت عودة سعيد بالذاكرة إلى أعوامه الأولى، وإلى مكانه الأول في القدس الفلسطينية، موقعاً فلسطينياً للذاكرة وفضاء جديد لمقاومة الاستيلاء الصهيوني، على الجغرافيا الفلسطينية وعلى التاريخ الفلسطيني.

2)- مقاومة الوِصاية وتسلُّط الوالدين:

إن استراتيجية الرفض والمقاومة التي خاضها إدوارد سعيد من خلال سيرته الذاتية "خارج المكان" لم تتوقف في اعتقادنا عند ذلك الغرض التقليدي، الذي دأب هذا الجنس الأدبي على تحقيقه عادة، بل استهدفت سيرته في مقاومة أكثر من صعيد. لعله من أهمها مقاومة إجراءات

والديه القسرية ـ إذا جاز التعبير ـ أعني مقاومة أشكال القمع والتسلُّط، ومختلف الضغوط التي خضع لها إدوارد سعيد من قبل والديه. فقد لا يكون هذا النوع من المقاومة مسبوقاً أو شائعاً في أدبنا العربي عموماً.

لقد بذل إدوارد سعيد محاولات حثيثة لاستجلاء ما اعتبره سراً في علاقته بوالديه، وهو ما حرص سعيد على افتراضه منذ البداية: وهو أن الطفل "إدوارد" كان يُعتبر مشروعاً يتوجّب ادارته ادارة اخلاقية وبدنية، ولذلك « كان والداي [يقول سعيد] محورَ نظامٍ إداريّ متكاملٍ يتحكّم بوقتي دقيقةً بدقيقة، ويحدَّد بناءً عليه موقفُ أبي حتى نهاية أيامه؛ وهو نظامٌ لم يترك غير فسحاتِ انفراجٍ نادرةٍ أستمتع بها وتمنحني الاحساسَ بأني منفلتٌ من قبضته ».[24]

وما يؤكد صحة هذا الافتراض، خضوعه لترتيبات جد صارمة، ولإجراءات قاسية، تمثلت في عدد من أساليب المراقبة والضبط والإصلاح، يرقى بعضها إلى درجة العقاب. وهي إجراءات لم يدّخر سعيد جهداً في البوح بها وانتقادها وإدانتها، موضحاً أنه لم يكن يُعامل على الوجه الأمثل، لكي يقوم بأفضل ما في وسعه، وحتى حينما كان يُظهر نبوغاً في الدراسة، فإنه نادراً ما كان يُكافأ على الوجه الذي يستحق.

لقد كانت اعترافات إدوارد سعيد بعمليات الإصلاح والقَوْلَبة القسرية، التي خضع لها في مختلف مراحل تنشئته، لافتة وذات مغزى، من ذلك قوله: « لم يَتْرك لي نظامُ الضبطِ والتربيةِ المنزلية الجامد الصارم، الذي حبسَني فيه أبي منذ سن التاسعة، أيَّ متنفَّسٍ أو أيَّ مجالٍ للإحساس بالذات، في ما يتجاوز قواعده وترسيماته. هكذا أصبحتُ "إدوارد" مخلوق والديَّ تراقِبُه في عذاباته اليومية ذاتٌ داخليةٌ مختلفةٌ كلياً عنه، لكنها على درجةٍ من فُتور الهمَّة بحيث تعجزُ في معظم الأحيان عن مساعدته ».[25]

ويكشف هذا الاقتباس، حجم المسافة التي باعدت بين ما أُريد لـ "إدوارد" أن يكون عليه عبر مخططات والديه، وبين ما كان هو يطمح إليه فعليًا، وكأننا بهذا الأخير يَرغب في تنبيهنا إلى حجم المقاومة التي بذلها للدفاع عن ذاته ورغباته، خاصة وأنه بات معروفاً في الآونة الأخيرة لدى عديد الدارسين، أن السيرة الذاتية ما بعد الكولونيالية تبتعد عن الجذور الأبوية، لإعادة اختراع الذات والمكان والمجتمع.[26]

لقد أسهمت تنشئة سعيد، في قمع ثقافته ولغته العربيتين وفي إبعاده عن هويته الفلسطينية، بسبب الأسلوب التربوي الذي انتهجته أسرته ونمط التعليم الذي أُجبر عليه

والذي كان غربياً بالكامل. فقد فرض الوالد على أسرته أسلوباً عملياً أو براغماتياً، مبالغ في تمثله بالطريقة الأمريكية. لقد أدان إدوارد سعيد هذا الأسلوب، فاضحاً إصرار والديه على افتعال تصوير أسرتهما بصورة ارستقراطية، تنزع إلى التجرّد من طابعها الشرقي، معبراً عن مقته ونقده لتلك « النوعية الاصطناعية لماهيتنا: أسرة تصرّ على افتعال تصوير نفسها جماعةً أوروبيةً صغيرة، على الرغم من بيئتها المصرية والعربية ».[27]

وقد عبّر سعيد عن تذمره ولومه الشديد لوالديه ـ وديع وهيلدا ـ على تهميش قضية فلسطين في حياته وإزاحتها من وعيه، مشيراً إلى أن « قمع فلسطين في حياتنا تمّ كجزء من عمليةٍ لا تسييسٍ واسعةِ النطاق من قبل والدين لا يثقان بالسياسة، بل يكرهانها، لشعورٍ بأنّ وضعهما في مصر على مقدار من الهشاشة، لم يكن يسمح لهما بالمشاركة في السياسة، ولا بمجرد النقاش فيها ».[28]

إن كل ما أمكن لإدوارد معرفته مبكراً عن فلسطين، كان بفضل عمّته "نبيهة".[29] أما والداه فلم يتخلّيا أبداً، عن معارضة انخراط ابنهما في الحياة السياسية بشدّة، حتى بعدما انفصل عنهما للعيش في أمريكا، فهو يتذكر ما قالته له أمه في إحدى المرات، عندما لاحظت أنه بدأ يتعاطى شيء من السياسة: « سوف ينْخِرب بيتك ».[30]

أما عندما أضحت مُيوله الفلسطينية واضحة المعالم، بعد نكسة عام 1967م، فقد حذّراه مِراراً ونصحاه تكراراً بالابتعاد عن السياسة، وبأن يلتزم وظيفته كأستاذ في الأدب الإنجليزي فقط. فقد بلغ الأمر بأمه، درجة توبيخه وتحذيره من مغبّة هذا الانخراط، مخاطبة إياه في إحدى المرّات قائلة: « عُد إلى كيانك الأصليّ: أنت أديب. السياسة في العالم العربي تُدمّر الناس الصادقين الطّيبين أمثالك ».[31]

إن رفض سعيد تبني خيارات ومواقف والده، بل ومقاومة ترسيماته بشدة، يمكن تأويلها أيضاً كتدبير لمقاومة أن يكون مجرد اختلاق لسلطة والدي متزمتين، أو أن يُعتبر فرداً من عائلةٍ مُصممة على التنكر لأصولها العربية، تُدير ظهرها لقضية فلسطين، وتحرص إلا على إظهار نفسها كطائفة صغيرة مقلدة للأوروبيين، فما أكثر مثل هذه الطواف في فلسطين ولبنان!

هذا ما يكون سعيد قد أحسّه على نحو باكر، والتمس فيه موضوعاً للسلطة ومقاومة تسلطها دون أن يقطع وشائجه بعائلته وبوالديه، مُقاوماً عزوفهما عن الإقرار بهويتهما المسيحية العربية الفلسطينية. ففي الوقت الذي أظهر فيه إدوارد التصاقاً بقدسه، وحرصاً على توثيق

ولادته بها ونشأته فيها، فقد ظهر وديع وهيلدا سعيد وكأنهما شخصان منقطعان عن جذورهما أو قادمان من غير مكان.

3)- مقاومة المرض وتحدي الموت:

لقد كُتب "خارج المكان" على مشارف الموت، حيث قرّر كاتبه أن يُدوّن سيرته الذاتية هذه بعدما أُبلغ في أيلول/سبتمبر 1991م بأنه مُصاب بسرطان الدم اللّمفاوي المزمن، الذي سيضع حدًا لحياته، إن آجلاً أو عاجلاً. فقد بات معقوداً أن المرض الخبيث الذي فتك بوالديه من قبل صار موروثاً بين أفراد العائلة، بحيث « أدركتُ فيما بعد [يقول سعيد] أن اجتياح السرطان هو أول تدخّل لا عودة عنه عن حميمية عائلتي التي كنتُ اعتقد انّها لا تُمسّ »،[32]

ففي خضم ترقبه للموت، كتب إدوارد سعيد ما اعتبره "مذكرات" كما جاء في العنوان الفرعي لكتابه "خارج المكان" الذي يقول في مقدمته : « منذ عدّة سنوات تلقّيتُ تشخيصاً طبّياً بدَا مُبْرماً، فشعرتُ بأهمية أن أُخلّف سيرة ذاتية عن حياتي في العالم العربي، حيث وُلدتُ وأمضيتُ سنواتي التكوينية، كما في الولايات المتحدة، حيث ارتدتُ المدرسة والكلية والجامعة. العديد من الأمكنة والأشخاص التي استذكرها هنا لم تعد موجودة على الرغم من أنّي أندهش باستمرار لاكتشافي إلى أيّ مدى أستنبطها، وغالباً بأدق تفاصيلها بل بتشخيصاتها المروّعة »،[33]

ومع ذلك، فقد يندهش القارئ لهذه السيرة، من الحيوية التي كُتبت بها، ومن صراحتها ونزاهتها الفائقة، بالنظر إلى الظروف الاستثنائية التي رافقت إنجاز هذا الكتاب، ظروف أحبطت كثيرين ممن هم في مثل حالة سعيد، وأقعدتهم حتى قبل أن يحين أجلهم ناهيك عن فعل الكتابة والتأليف ذاته، وما يقتضيه من تفكير واستذكار ومراجعات وغيرها.

لعله في وصف الناشر العربي ــ دار الآداب البيروتية ــ لـ "خارج المكان"، بأنه عالم غني وجذاب، يعج بالتفاصيل والشخصيات التي يصعب تخيلها، ما يُغني عن كل وصف، خاصة في قوله بأنه « نص غنائيّ وجميل الصّنعة، يبلغ أحياناً درجات عالية من الصراحة بقدرِ ما هو، في الآن ذاته، حميمُ ومرح. ويكشف إدوارد سعيد فيه دقائق ماضيه الشخصيّ ويَستعرض لنا الأفراد الذين كوّنوا شخصيته ومكّنوه من أن ينتصر ليصبح واحدًا من أبرز مثقفي عصرنا »،[34]

إن في هذا الوصف الموجز لـ "خارج المكان"، تأكيد على أهمية هذا النص في ممارسة فعل المقاومة وثقافة الاحتجاج، التي أسهم في تكريسها هذا الأخير، إذا ما قُرأ بعيداً عن كونه مجرد مذكرات. وعليه يمكن اعتباره واحداً من أهم وأبرز الأعمال الإنسنية في العصر الحديث، أي

باعتبار « هذا الكتاب سِجِلٌّ لعالم مفقود أو منسيٌّ ».[35]

بدأ إدوارد سعيد في كتابة نصه في عام 1994م خلال فترة مرضه، بالتزامن مع مباشرته العلاج الكيميائي، في شهر ماي من نفس السنة « وخلال السّنوات الخمس التي استغرقها تأليف هذا الكتاب، تحمّل معي [يقول سعيد] أفراد عائلتي ـ مريم ووديع ونجلاء ـ نوبات المرض والغيابات والعِلاجات، بالإضافة إلى تحمّلهم حالتي العامة الصعبة الاحتمال أصلاً ».[36]

لم يكن الموت نفسه هو ما أقلق الكاتب أو سيطر على ذهنه، بل كان القلق الذي سببه لأفراد أسرته، وبخاصة أبناؤه الثلاثة. لقد فَكَّر في الرحيل إلى "بوسطن" (Boston) للسكن هناك، لكنه عاد إلى نيويورك وفهم بسرعة بأنه كان يبحث عن مكان ليموت فيه.

إن الأمر ليتعلق بالمرحلة الأخيرة من حياته، التي قرر أن يكرس فيها جهده وتركيزه لكتابة هذه السيرة الذاتية، قائلاً في هذا الخصوص: « كَتبتُ معظم هذا الكتاب خلال فترات من المرض أو العلاج، أحياناً في منزلي في نيويورك، وأحياناً أخرى حين كنتُ أنعم بضيافة أصدقاء أو مؤسسات في فرنسا ومصر. بدأتُ العمل عليه في أيار 1994، خلال فترة نقاهة على أثر ثلاث وجبات أولية من العلاج الكيميائي لمرض سرطان الدّم، بعطف وصبر مبذولين بلا حساب ».[37]

لقد عاش سنواته الأخيرة التي تلت تشخيص مرضه، ظروفا جد صعبة وصراعا مريرا مع مرض السرطان ـ الذي دام قرابة 12 عاماً ـ الذي قلب حياته رأسا على عقب. كان المرض يحرمُه من حوالي 60% من طاقته، لكنه لم يستسلم لهذا المصاب، بل استمات في مقاومته حتى آخر نفس في حياته. لم يعد يفكر إلا في عَيْش الحاضر، لاستذكار الماضي لبعثه نحو المستقبل.

واصل سعيد المقاومة والاحتجاج، لم يتوقف عن القراءة والكتابة وإلقاء المحاضرات والظهور في البرامج الإعلامية والسفر الكثيف وحضور المؤتمرات وسماع الموسيقى وعزفها مستمتياً في الدفاع عن قضية فلسطين، وعن عموم المهمشين وعن أفكاره ومواقفه.

لم يتحرج من الحديث عن مرضه أو إخفاء معاناته إيّاه، قائلاً بشفافية: « والآن، تشاء مفارقةٌ شيطانية أن أُصاب بسرطان الدّم العنيد الغادر، فأُحاول طرده من ذهني كليّاً على طريقة النّعَامة، ساعيًا بنسبة معقولة من النجاح، إلى أن أعيش حياتي وفق نظامي المِيقاتي [...] أجدني أتساءل في سرّي ما إذا كان نظامُ الواجبات والمواعيد النّهائية سوف ينقذني الآن، مع أنّي أُدرك، طبعاً، أنّ مرضي يَزْحف زحفاً على نحو غير منظور، وبسرّية أكبَر وغدرٍ أعظمَ من سريان الوقت الذي كانت تعلنه ساعتي اليدويةُ ».[38]

إن الإحساس بزحف المرض وبسرعة اقتراب الأجل، عمق إحساس إدوارد بالعجز عن تحقيق الأشياء التي كان يصبو إلى تحقيقها، معتبراً الكتابة إحدى ملاذاته الأخيرة لتحقيق تلك الأغراض. ولا شك بأن القدرة على تحمل مقتضيات الكتابة وأعباء التأليف في مثل تلك الظروف العصيبة، يُعد فعلاً من أفعال المقاومة، مقاومة للمرض وتحديا للموت، لأجل بعث سرديّة قد تكون الأخيرة، تمنح ساردها فرصة البقاء حياً، في مستقبل لن يكون هو بالتأكيد جزء منه.

إن الموت والحياة، هما الثنائيان الضديان أو بالأحرى الطباقيان،** اللذان يمنحان لوجود الكائن معنى. وقد عبر مارتن هيدجر (M. Heidegger) عن هذا المعنى الفلسفي الذي يكتسيه الموت، فهو « وحده الكفيل بالكشف عن طبيعة المستقبل. وهو تلك النّهاية التي يستطيع الموجود البشري عن طريقها أن يُصبح كلاً. وأن القلق هو الذي يكشف لنا عن طابع وجودنا باعتبارنا موجودات متناهية، قد جُعلت للموت. وليس الإنسان هو الموجود الوحيد، الذي يعرف أنه فان فحسب، بل إن الإنسان هو الموجود الوحيد الذي يدخل الموت في صميم كينونته ».[39]

منذ اكتشاف إدوارد سعيد إصابته بالسرطان، الذي اجتاح خلاياه شيئا فشيئا، صار بمثابة "سيف ديموقليس" حيث لم تعد الحياة بالنسبة إليه، أكثر من تمرين يومي للبقاء على قيد الحياة. فقد تعطل الزمن الموضوعي في وعيه وإدراكه بفعل ضغط المرض ونوباته، التي تجتاح بدنه من حين لآخر. لم يعد يُقاس الزمن عنده بالدقائق والساعات، بل بحجم الكلمات وكم الأسطر وعدد الصفحات، التي يكافح سعيد لإنجازها يومياً، في سباق حقيقي مع الزمن؛ ماضياً وحاضراً. حاضر قد بدأ سعيد يفقد زمام السيطرة عليه، وماض صار يعتصر تحت إجهاد الذاكرة، لاسترجاع حياة كانت جدّ عامرة.

لقد كانت مذكرات سعيد مشحونة بحماسة صاحبها وبحِرصه على إعادة تشييد أركيولوجيا الخمسينيات من القرن الماضي، على خارطة الشرق الأوسط الما بعد كولونيالي، التي عملت مخططات الإمبريالية وهندسة الكولونيالية على إعادة ترتيبها، ترتيباً خلف وراءه تصدّعات جيوسياسية، ما زالت آثارها تطال كل اقطار المنطقة إلى حد الآن.

لقد كانت مشاهد المرض ومراسيم الموت، طاغية في عديد الفصول من "خارج المكان" لكنها لم تكن اعتباطية، فقد يُفسّر ذلك على أنه نوع من أنواع الإسقاط، خاصة عند حديثه عن مرض والديه ومعاناتهما مع المرض الخبيث. ففي إحدى المشاهد التراجيدية، يُصوّر لنا سعيد إحدى حالات والده المثيرة للشفقة، التي تظهر « جسده يتعرّض لاجتياح الخلايا الخبيثة المقيت، تأكل أعضاءه تدريجياً، ويُمزّق المرضُ المخيفُ، بل الوخيم، نُخاعَه وعينيه وأذنيه

وحنجرته ».[40]

وفي مشهد آخر، لا يقل تراجيدية وإيلاماً عن المشهد السابق، يصوّر فيه معاناة أمّه هذه المرة التي « حُرِمت النومَ ليلاً، ولم ينفع معها شيء، لا المسكناتُ ولا الحبوبُ المنوّمة ولا المليّنات [...] لا شيء نفع معها. «ساعِدني على النوم، يا إدوارد»، قالت لي ذات مرة برجفة مثيرة للشفقة في صوتها لا تزال تتردد في أذنيّ وأنا أكتب هذه السطور. ولكن السرطان ما لبث أن غزاَ الرأس، فنامت كلَّ الوقت خلال الأسابيع الستة الأخيرة ».[41]

لقد قُدّر لسعيد أن يرث نفس الخاتمة والمصير، وأن يتجرّع نفس المعاناة التي لقيها والداه حيث يقول بصريح العبارة « أنّ عجزي عن النوم هو آخر ما أورثتني إياه [يقصد أمه هيلدا] فعلى النقيض من نضالها هي لتنام [...] على أنّي خلافاً لها، وصلتُ إلى نقطة لم أعُد أرغب في النوم أصلاً. فالنوم عندي معادل للموت، مثله مثل أيّ تقليص للوعي. وخلال وجبة علاجي الأخيرة ـ التي استغرقتْ اثنيْ عشر أسبوعاً ـ أزعجتني الأدوية التي أُعطيتُها لطرد الحمى والرّجفات، ولكن أزعج ما أزعجَني هو تنويمي القسريّ، [...] فحاربتُ المسكّنات الطبية بضراوة كأن كياني ذاته يعتمد على مقاومتي تلك، بما فيها مقاومة نصيحة طبيبي ».[42]

لقد نبّهَنا الكاتب في إشاراته وتلميحاته العديدة إلى حقيقة جدّ أساسية، من شأنها أن تختزل كل هذه التفاصيل، وهي أن فعل الكتابة في مثل هذه الظروف العصيبة، التي يترافق فيها الألم والقلم، تمثل قمة المقاومة والتحدي: تحدي المرض ومقاومة الموت.

خاتمة:

من خلال دراستنا للسيرة الذاتية، في علاقتها بثقافة المقاومة بشكل عام، وانطلاقاً من تتبعنا لتجلياتها في مذكرات إدوارد سعيد "خارج المكان"، فقد خلصت هذه الدراسة إلى ما يلي:

- أن السيرة الذاتية باتت اليوم لوناً من ألوان التعبير الأدبي، التي لا تقل أهمية عن غيرها من الألوان الفنية والأدبية الأخرى، وليس من قبيل المبالغة القول بأنها أصبحت اليوم فناً من فنون الخطاب المعاصر، له خصوصياته وأسُسه الفنّية، سواء من حيث التقنيات الإجرائية أو من حيث أساليب الطرح أو من حيث الموضوعات التي تتناولها.

- لقد انتقلت فكرة المقاومة من مجرد حدث أو فعل عنيف إلى ثقافة تتداخل وتتفاعل مع مفاهيم أخرى مكملة، وهي أكثر حضورًا واستماتة في عديد الميادين الإنسانية كالدين والأدب والفلسفة والفن العلم وغيرها، مما جعلها قيمة إنسانية وأخلاقية، من المفيد تأصيلها حتى في

المناهج التربوية.

- ومن خلال قراءتنا لمذكرات إدوارد سعيد وتتبعنا لمنعطفات نشأته، تكشفت لنا الروابط القوية التي انعقدت بين سيرة هذا الأخير الذاتية وبين استراتيجيات المقاومة التي خاضها سعيد على أكثر من جبهة وصعيد، دفاعاً عن ذاته وهويته، وعن ووطنه ولغته، وعن وجوده ككل.

- كما خلصت هذه الدراسة إلى ضرورة توسيع مفهوم المقاومة، الذي بات يتجاوز اليوم دلالاته التقليدية، المتمثلة في الكفاح الذي غالبا ما يكون مسلحاً، في مواجهة قوة احتلال غاشمة. فالمقاومة كمعطى من معطيات الثقافة وجدت طريقها بفاعلية في الأطر الثقافية نفسها. وبالتالي فإن ما تمتلكه الثقافة من تعدد وتنوع، سيسهم بلا أدنى شك في إخصاب أساليب المقاومة.

- وأخيراً، نرجو أن نكون قد أسهمنا في التعريف بأحد قلاع النقد المقاوم، وفي ابراز إحدى اسهاماته المهمة، التي عملت على أنسنة النقد المعاصر. ففي اعتقادنا أن إرث إدوارد سعيد الفكري، ما زال بحاجة إلى التعريف به في عالمنا العربي.

الهوامش:

1- ينظر: شعبان عبد الحكيم محمد، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى 2005، ص: 19-20-21.

2- جورج ماي، السيرة الذاتية، ترجمة محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، تونس، 1992، ص: 28.

3- ينظر: دويت رينولدز، السيرة الذاتية في الأدب العربي، مجلة الكرمل عدد 76-77، سنة 2003، ص: 89.

4- عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار أميّة، تونس، 1989، ص: 115. - أنظر أيضا: يحي ابراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ب.ت، ص: 30.

5- محمد الباردي، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث: حدود الجنس وإشكالاته، مجلة فصول م 16 عدد 3، سنة 1997، ص: 69.

6- عبد الرزاق الدواي، حوار الفلسفة والعلم والاخلاق في مطالع الألفية الثالثة، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء ـ المغرب، ط1، 2004، ص:121.

7- إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى (2000)، ص: 41-42.

8- محمد عبد الغني حسن، التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، ط3 (دون تاريخ)، ص: 23.

9- Philippe Lejeune: Le pacte autobiographique, édition seuil, collection: poétique, Paris 1975.P: 14.

10- بول ريكور، الزمان والسرد(الزمان المروي)، تر: سعيد الغانمي، مر: جورج زيناتي، ج: 3، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006، ط1، ص: 363.

-11 - Friedrich Nietzsche, par-delà le bien et le mal ,Littérature générale (Paris: Gallimard, 1963), p: 28.

12- محمد الباردي، عندما تتكلّم الذّات: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005، ص: 108.

13- عبد المنعم الحنفي، الموسوعة الفلسفية، دار ابن زيدون - بيروت، ومكتبة مدبولي - القاهرة، الطبعة الأولى، 1986، ص: 146.

14- فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر(القاهرة)، الطبعة الثانية، 2015، ص: 65.

15- نهال محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة؛ سعيد وباختين، ألف مجلة البلاغة والمقارنة، عدد خاص عن إدوارد سعيد والتقويض النقدي للاستعمار، العدد الخامس والعشرون، دار إلياس العصرية، القاهرة ـ مصر، 2005، ص: 144- 145.

16- شهلا العجيلي، آداب الشعوب التي تحرّرت من الاستعمار، كتابة الضحية (النص الروائي- نموذجا)، ضمن كتاب: الدراسات الثقافية ودراسة ما بعد الكولونيالية، الدار الأهلية، الأردن، الطبعة الأولى، 2008، ص: 78.

17- إدوارد سعيد، خارج المكان، المصدر نفسه، ص: 9.

*- ظهر مصطلح "حق العودة" عقب النكبة التي حلت بالفلسطينيين عام 1948، بعد أن أسفرت سلسلة مذابح ارتكبتها العصابات الصهيونية بحق عشرات القرى والمدن الفلسطينية، إلى نزوح نحو 800 ألف فلسطيني آنذاك. ومنذ ذلك الوقت، يطالب اللاجئون الفلسطينيون البالغ عددهم حاليا نحو 5.9 ملايين شخص بالعودة إلى أراضيهم. يذكر أن استقالة إدوارد سعيد من عضوية المجلس الوطني الفلسطيني، كانت بسبب معارضته الشديدة لاتفاقيات أوسلو (1993) وتنكرها لحق العودة الفلسطيني.

-18 - Gaston Bachelard, La Poétique de l'espace, presse universitaires, Paris.edit:3,1961.

-19 - Luca loana. Edward Said's Lieux de Mémoire: Out of Place and the Politics of Autobiography. Social Text 24,2 (Summer2006).p: 130.

20- إدوارد سعيد، خارج المكان، المصدر نفسه، ص: 46.

21- المصدر نفسه، ص: 149.

22- إدوارد سعيد، خارج المكان، المصدر نفسه، ص: 150.

23- المصدر نفسه، ص: 47.

24- المصدر نفسه، ص: 54.

25- المصدر نفسه، ص: 42- 43.

-26 - Linda Anderson. Autobiography. London ; New York: Routledge, 2001.p: 120.

27- إدوارد سعيد، خارج المكان، المصدر نفسه، ص:107.

28- المصدر نفسه، ص: 157.

29- المصدر نفسه، ص: 158.

30- المصدر نفسه، ص: 157.
31- المصدر نفسه، ص: 357.
32- المصدر نفسه، ص: 317.
33- المصدر نفسه، ص: 19.
34- المصدر نفسه، كلمة الناشر.
35- المصدر نفسه، ص: 19.
36- المصدر نفسه، ص: 17.
37- المصدر نفسه، ص: 17.
38- المصدر نفسه، ص: 143.

**- الطباقية contrapuntalism وهي أحد المفاتيح المنهجية التي استخدمها إدوارد سعيد في كتابه الثقافة والامبريالية Culture and Imperialism، وهي مفهوم مستعار من الموسيقى، استخدمه سعيد كطريقة يقرأ بها الأرشيف الكولونيالي والإمبريالي. فالطباقية تعني هنا، فهم تجارب متباينة لكل منها جدول أعماله وسرعة تطوره وتكويناته الداخلية وتماسكه ونظام علاقاته الخارجية الخاصة، غير أن جميعها متعايشة ومتفاعلة، إحداها مع الأخرى.

39- زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة(د،ت)، ص: 410-411.
40- إدوارد سعيد، خارج المكان، المصدر نفسه، ص: 316.
41- المصدر نفسه، ص: 358.
42- المصدر نفسه، ص: 358.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1- إدوارد سعيد، خارج المكان ـ مذكرات، ترجمة فواز طرابلسي، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى (2000).

المراجع العربية:

1- بول ريكور، الزمان والسرد(الزمان المروي)، تر: سعيد الغانمي، مر: جورج زيناتي، ج: 3، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006، ط1، ص: 363.

2- جورج ماي، السيرة الذاتية، ترجمة محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، تونس، 1992.

3- عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار أميّة، تونس، 1989.

يحي ابراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ب،ت.

4- عبد الرزاق الدواي، حوار الفلسفة والعلم والاخلاق في مطالع الألفية الثالثة، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء ـ المغرب، ط1، 2004.

5- محمد عبد الغني حسن، التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، ط3 (دون تاريخ).

6- محمد الباردي، عندما تتكلّم الذّات: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005.
7- عبد المنعم الحنفي، الموسوعة الفلسفية، دار ابن زيدون - بيروت، ومكتبة مدبولي - القاهرة، الطبعة الأولى، 1986.
8- فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر(القاهرة)، الطبعة الثانية، 2015.
9- شعبان عبد الحكيم محمد، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى 2005، ص: 19-20-21.
10- شهلا العجيلي، آداب الشعوب التي تحرّرت من الاستعمار، كتابة الضحية (النص الروائي- نموذجا)، ضمن كتاب: الدراسات الثقافية ودراسة ما بعد الكولونيالية، الدار الأهلية، الأردن، الطبعة الأولى، 2008.
11- زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة(د،ت).

المراجع الأجنبية:

1- Philippe Lejeune: Le pacte autobiographique, édition seuil, collection: poétique, Paris, 1975.

2- Friedrich Nietzsche, par-delà le bien et le mal ,Littérature générale (Paris: Gallimard, 1963).
3- Gaston Bachelard, La Poétique de l'espace, presse universitaires, Paris.edit:3,1961.
4- Luca Ioana. Edward Said's Lieux de Mémoire: Out of Place and the Politics of Autobiography. Social Text 24,2 (Summer2006).
5- Linda Anderson. Autobiography. London ; New York: Routledge, 2001.

المقالات:

1- دويت رينولدز، السيرة الذاتية في الأدب العربي، مجلة الكرمل، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، رام الله- فلسطين. عدد 76-77، سنة 2003.
2- محمد الباردي، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث: حدود الجنس وإشكالاته، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، م 16، عدد 3، سنة 1997.
3- نهال محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة؛ سعيد وباختين، ألف مجلة البلاغة والمقارنة، عدد خاص عن إدوارد سعيد والتقويض النقدي للاستعمار، العدد الخامس والعشرون، دار إلياس العصرية، القاهرة ـ مصر، 2005.